نواحي الجاحظ

- ٣ -

ذكرت لكم اول عهدي بالجاحظ ووعدتكم ان أفصّل نواحيه التي هيأت الكلام عليها في سنتنا هذه ولِمَ لا أشير من اليوم الى اول اثر من الآثار التي أبقتها في نفسي دراسة كتبه فقد جمعت ذهني وتفرغت لإعداد ما أحاضر به فما أعظم حيرة حرتهـا وما اشدّ دهشة دهشتها بعد النظر في فصول ابي عثمان انه يخرج من باب الى باب ومن شكل الى شكل ، قد حشدت له المعاني من اقطارها وسيقت اليه الأفكار بازمتها يصرّفها كيف يشاء لايخاف في تصريفها عثرة يعثرها او كبوة يكبوها فالكلام عليه بعيد الغور دقيق المذهب لا يأمن صاحبه مزلة القدم فانا أخاف ان حاولت ان أعرض عليكم جملة طرائفه ان لا اعرض شيئاً فيكون مثلي في ذلك كمثل ابن بطوطة فانه لما وصل من جبل لبنان الى مدينة بعلبك وصفها فقال[1] : وهي حسنة قديمة من اطيب مدن الشام تحدق بها البساتين الشريفة والجنات المنيفة وتخترق ارضها الانهار الجارية وتضاهي دمشق في خيراتها المتناهية وبها من حب الملوك ماليس بسواها وبها يصنع الدبس المنسوب اليها وهو نوع من الرب يصنعونه من العنب ولهم تربة يضعونهـا فيه فيجمد وتكسر القلة التي يكون بها فيبقى قطعة واحدة وتصنع منه الحلواء ويجعل فيها الفستق واللوز ويسمون حلواءه بالملبن ويسمونها ايضاً بجلد الفرس وهي كثيرة الالبان وتجلب منها الى دمشق وبينهما مسيرة يوم للمجد»

فأنتم تجدون ان ابن بطوطة سها عن وصف اهم شيء في بعلبك وهو قلعتهـا ولم يصف في رحلته الا دبس بعلبك واين دبس بعلبك من قلعتها التي تجلت في بنائهـا عظمة الانسان ولو تفرغ ابن بطوطة لوصفها لوجد مجال القول منبسطاً فليس يخطو

(١) رحلة ابن بطوطة — ص ٤٩ — مطبعة التقدم بمصر .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

المرء خطوة فيها الا حارت عينه في ظواهر عظمتها ؟ فكأنما ابن بطوطة ادرك حيرته فوقف قلمه ولم يجر هذا القلم الا في ذكر صغائر الامور .

وانا كلما حدثتني نفسي بالكلام على عجائب الجاحظ خطر بالبال في الحال دبس بعلبك فيحار العقل في هذه العجائب و يقف القلم في وصفها فلا يجري الا في التلميح الى نوادر الجاحظ وقد ألهتني هذه النوادر كألهى رحالتنا دبس بعلبك فلما شرعت في إعداد ما أحاضر به تمثلت لي نادرته هذه التي قرأتها في كتاب البخلاء قال ابو عثمان[1] :

صحبني محفوظ النقاش من مسجد الجامع ليلاً فلما صرت قرب منزله وكان منزله اقرب الى مسجد الجامع من منزلي سألني ان ابيت عنده وقال : اين تذهب في هذا المطر والبرد ومنزلي منزلك وانت في ظلمة وليس معك نار وعندي لبأ لم ير الناس مثله وتمر ناهيك به جودة لا تصلح الا له فملت معه فأبطأ ساعة ثم جاءني بجام لبأ وطبق تمر فلما مددت قال : يا با عثمان انه لبأ وغلظة وهو الليل وركوده ثم ليلة مطر ورطوبة وانت رجل قد طعنت في السن ولم تزل تشكو من الفالج طرفاً وما زال الغليل يسرع اليك وانت في الاصل لست بصاحب عشاء فان اكلت اللبأ ولم تبالغ كنت لا آكلاً ولا تاركاً وحرشت طباعك ثم قطعت الاكل اشهى ما كان اليك وان بالغت بتنا في ليلة سوء من الاهتمام بامرك ولم نعد لك نبيذاً ولا عسلاً وانما قلت هذا الكلام لئلا تقول غداً : كان وكان ، و لله قد وقعت بين نابي اسد لاني لو لم اجئك به وقد ذكرته لك قلت بخل به وبدا له فيه وان جئت به ولم احذرك منه ولم اذكرك كل ماعليك فيه قلت: لم يشفق علي ولم ينصح ، فقد برئت اليك من الامرين جميعاً وان شئت فأكلة وموتة وان شئت فبعض الاحتمال ونوم على سلامة فما ضحكت قط كضحكي تلك الليلة ولقد اكلته جميعاً فما هضمه الا الضحك والنشاط والسرور فيما اظن . » —

لقد تمثلت لي هذه النادرة لانها تدل على روح الجاحظ فانه مطبوع على النوادر ، شيخ قد طعن في السن يشكو من الفالج طرفاً ان اكل اللبأ و بالغ بات في اسوإ ليلة وربما كانت اكلة وموتة ومع هذا كله فقد اكل ولم يبال طمعاً في الضحك والنشاط

(١) كتاب البخلاء — ص١٠٣ — مطبعة الجمهور بمصر .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

والسرور . تمثلت لي هذه النادرة فقلت في نفسي : أفيصيبني في الكلام على الجاحظ ما اصاب ابن بطوطة في الكلام على بعلبك ، أفأغفل عن خصائص عبقريته فلا تأخذ العين الا طرفاً واحداً من اطراف هذه العبقرية . —

اي معنى لم يقم في صدر الجاحظ ، واي فكر لم يزدحم على ذهنه ، كتب في كل شيء ، في جلائل الامور وصغائرها ، فلو نظرنا في طائفة من رسائله لتبين لنا اختلاف المعاني التي صورها والافكار التي وضحها ، كتب في الأخلاق والفلسفة والدين والتأديب والاجتماع والعلم والطبيعيات والأدب وفلسفة اللغة وما شابه ذلك وليست غايتي ان استوفي الكلام على تصانيفه في محاضرتي هذه وانما غايتي لتنبيهكم من اليوم على ازدحام موضوعاته حتى تعلموا الميدان الذي جال فيه كل مجال فأول اثر من آثار دراسة كتبه حيرة يحارها المرء في خصب عبقريته فلا يعرف كيف يبدأ بالكلام على هذه العبقرية ولا كيف يفرغ من هذا الكلام ولا عجب في ذلك فان رجلاً يكتب له ان يعيش قرناً بوجه التقريب ، لم يقع في خلاله بيده كتاب الا استوفى قراءته كائناً ما كان ، ان رجلاً يكتري دكاكين الوراقين ويبيت فيها للنظر لايعجب من خصب عقله .

ولكن فلنجتهد في الخروج من حيرتنا هذه ولنبين من اليوم النواحي التي ينبغي لنا ان نعدد الكلام عليها .

اول هذه النواحي ترجمة الجاحظ وجملة اخباره من مبدإ حياته الى خاتمة ايامه : أين وطنه ، هل تغنى بهذا الوطن ، في اي سنة ولد ، ومن هم اهله ، وما هو نسبه ، أين حصل في صغره ، ماهي حرفة الجاحظ في مقدمة امره ، هل جمع مالاً ، هل تقلد شيئاً من عمل السلطان ، هل طمع في الخلافة ، هل عاش في نعمة ، هل كان يعتني بداره ، الى اين سافر وما هي آثار اسفاره ، من هم الذين لازمهم من اصحاب الشأن كيف كانت خاتمة حياته ، بما ذا أصيب في آخر عمره ، هل اثرت علته في شيء من كتبه ، هل ادت الى شيء من اختلال تأليفه ؟ .

فاذا وقفنا على هذا كله اخذنا باطراف الكلام على تحصيله ، اين قرأ ودرس في صباه ، من هم الاساتذة الذين اخذ عنهم ، هل اقتصر على قراءة كتب في مذاهب واحدة ام انه قرأ كتباً في مذاهب شتى ، حتى طبعت عبقريته بطابع خاص ماهي الكتب

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

التي كان يقرأها ، هل قرأ شيئاً من كتب اليونانيين هل كان يعرف الفارسية ، هل كان لاساتيذه تأثير في تنمية عقله . ما هو رأيه في بعض هؤلاء الاساتيذ .

فاذا تهيأ لنا الكلام على تحصيله شرعنا في الكلام على عصره فنظرنا في الانقلاب الادبي في هذا العصر ، من هم الشعراء الذين ذهبوا في الشعر مذاهب لم يذهبها من تقدمهم ، ثم نظرنا في الانقلاب الفكري وفي حرية الفكر ثم اشرنا الى كثرة الكتب المترجمة ككتب الهند وكتب اليونانيين ثم نحنا الى الزندقة وكثرة الفرق الاسلامية وكثرة الأعاجم الذين خالطوا العرب والى اعتقادات الناس وبعض الخرافات كخرافات الاباءة والعجائز والاعراب .

وبعد ان يتم لنا الكلام على هذه الامور كلها نتفرغ للكلام على مذهبه ، من هم المعتزلة ما هو الرأي في الثقة بدينه ، هل نجد لنا مطعناً على معتقده ، هل يميل الى العقل في امور الدين ، كيف يفسر الآيات والاحاديث ، هل يستعمل العقل في هذا التفسير ، ما هو أسلوبه في المناظرات الدينية ، هل يكره الغريب من التأويل ، هل يحمل كلام العرب على ظاهره ، هل يستعمل العلم في امور الدين ، هل يميل الى تأييد العلم بالدين ، ما هي نماذج من مناظراته ومن نقده للاحاديث وللآيات ، هل كان يشرك بين علم الكتاب والسنة وبين وجدان الخاسة واحساس الغريزة .

وكما اننا لا نغفل عن الكلام على دينه فكذلك لا نغفل عن الكلام على علمه ، هل كان الجاحظ عالماً ، من هو العالم ، ماالفرق بين العالم وغير العالم ، هل كان الجاحظ ينقب عن الحقيقة ما هي اساليبه في التحقيق العلمي ، هل يلجأ الى التجريب والعيان ، هل يستند في العلم الى العقل والى الحس ، هل كان يجمع بين معرفة السماع وعلم التجربة ، ما هي نماذج من مجادلاته العلمية ومن نقده العلمي ، ما هي بعض مذاهب علمية ذكرها في كتبه وهي من اجل المذاهب العلمية في عصرنا هذا مثل قانون الارث وتأثير البيئة والتلون بالوان البيئة .

ولا مندوحة لنا بعد النظر في علمه عن النظر في تهكمه ، هل كان مطبوعاً على التهكم ، هل كان يميل الى التهكم من صغره ، هل كان يخالط الذين يميلون الى الهزل ، هل كانت

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

نوادره في محلها ، هل تهكم على المفسرين ، ماهو الرأي في تهكمه ، اذكان يتعمد الاضحاك في بعض الاحيان ، ما هو الرأي في هذا التعمد ، ما هي خصائص هذا التهكم .

واذا فرغنا من الكلام على تهكمه رجع بنا البحث الى الكلام على مذاهبه الأدبية : ماهو رأيه في الأدب المجرد ، هل استعمل الأدب المجرد في كتاباته . ماهو رأيه في اللحن والكلام غير المعرب واللفظ المعدول عن جهته في باب النوادر ، ماهو رأيه في اللفظ ورأيه في المعنى ، ماهو رأيه في تفضيل اللفظ على المعنى ، ماهو رأيه في تأثير الشعر .

وبعد ان نفرغ من هذه النواحي كلها نخلص الى ناحية أسلوبه في النقد الأدبي : ما هي طبيعة النقد في عصره ، رأيه في نقد الأصمعي وابي عبيدة والأخفش ، ما هو أسلوبه في النقد الادبي ، هل كان نقده مجرداً ... أحسن فلان ... أساء فلان ... هل كان يبين رأيه في بعض الاوقات ... كيف كان رأيه في بشار وابي نواس وامرئ القيس ، ماهو رأيه في زيادة الرواة والتوليد على السن الشعراء وعلماء اللغة ، ماهو رأيه في اولية الشعر الجاهلي .

ثم نشرع بعد هذا كله في الكلام على عبقريته وعلى لغته وفنه .

اما عبقريته فاننا نبحث فيها عن افكاره العامة : ما هي المعاني التي برز فيها ، ما هي الافكار التي لم يتوسع فيها ، ما هي طبيعة عقله في هذه الافكار والمعاني ، الى اي شيء ينفذ هذا العقل ، هل يوفي المعنى حقه ، ماهو وصفه لدقائق الامور ، ماهو وصفه لجلائل الامور ، ما هي نماذج من وصفه .

واما لغته فاننا ننقب فيها عن خصائصها ، ما هي خصائص لغته الادبية ولغته العلمية ولغته الفلسفية ، هل يميل الى اللغة الشعرية في العلم ام انه يميل الى المصطلحات المجردة التي لا الوان لها ، هل يميل الى المجاز ام انه يميل الى الحقيقة ، هل يستعمل لكل معنى اللفظ الذي خلق له ، هل تبعد لغته العلمية في بعض الأحيان عن الموسيقى اللفظية ، هل يستعمل المترادفات الكثيرة لتقرير المعنى في ذهن القارئ ، هل يستعمل اللفظة وضدها تمييزاً للاشياء ، هل في بعض لغته الفاظ غامضة لانها كانت تدل على معان ثم ذهبت المسميات فبقيت لاسماء وحدها .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

هذا ما نسعى في التنقيب عنه في دراستنا كتب الجاحظ وقد نزيد في مباحثنا او ننقص منها على قدر مايقتضيه المقام وانما المهم ان ندرس آثار الجاحظ من النواحي التي تصوره لنا تصويراً متكاملاً وأسلوبنا في هذه الدراسة انما هو الاسلوب الذي اتبعناه في دراسة شعر المتنبي فاننا لانتقيد باحد وانما ننظر في كتب الجاحظ فندوّن مايلهمنا اياه هذا النظر المطلق وعلى هذه الصورة نستطيع ان نطبع شعورنا بطابع خاص منسلخ من كل تقليد .

في ١٣ كانون الاول سنة ١٩٣٠

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net